المحاضرة الثامنة: الفنون النثرية الجزائرية الحديثة

أولا- فن الرحلة. ثانيا – فن الخطابة.

أولا- فن الرحلة

تمهيد

أدب الرحلات من الفنون الأدبية التي شاعت لدى العرب منذ القديم، و هو فن له خصائصه المعينة بل إنه – كما يقول الدكتور (شوقي ضيف) " يرفع التهمة التي ترى أن الأدب العربي لم يعالج فن القصة"[1]، لأن الحديث عن الأمم و البلدان و وصف المجتمعات التي يمر بها الرحالة أو يقصدها إنما هو بصورة ما لون من ألوان القص.

و هذا الفن موغل في القدم، عرفته قبل العرب أمم أخرى كالفراعنة و الفينيقيين و الرومان و الإغريق، ثم جاء الرحالة العرب الذين جابوا الآفاق. و اشتهر منهم كثيرون مشرقا و مغربا أمثال ابن جبير (وابن بطوطة) و (الادريسي) و (العبدري) و (العياشي) و غيرهم[2]، نقلوا إلينا ما كان يضطرب في العصور السابقة و شاهدنا من خلال رحلاتهم مستوى الحضارة التي بلغتها الشعوب، "وقد اعترف كثير من الباحثين الأجانب بفضل الرحالة العرب و نوهوا بقيمة رحلاتهم من حيث مادتها و أسلوبها و طريقة عرضها"[3].

و قد أسهم الرحالون الجزائريون في عصر الأتراك بمجهودات كثيرة في هذا المجال و مارس هذا الفن كتاب كثيرون و لا سيما تلك الرحلات الدينية التي كان يقصد منها لقاء شيوخ الطرق الصوفية و الاجتماع بهم أو السفر لأداء فريضة الحج، و بعض هذه الرحلات طبع حديثا و البعض الآخر لا زال مخطوطا حتى اليوم[4].

---

[1] – شوقي ضيف: فنون الأدب العربي – الفن القصصي، دار المعارف، مصر، 1956، ص 6.

[2] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث 1930–1974،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 48.

[3] – ينظر: كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1963، ص 25 وما بعدها.

[4] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث 1930– 1974، ص48–49.

ومن أشهر الرحالة الجزائريين في تلك الفترة :"أحمد بن عمار[1] (ت: 1206هـ-1791م). الذي كان أديبا وشاعرا، ألف رحلة أسماها: (نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب). وقد جمع فيها قصائد كثيرة في مدح الرسول شأن الأدباء والعلماء في ذلك العصر". ومحمد بوراس المعسكري"[2]، والورتلاني[3] الذي جمع في رحلته بين الأدب والتاريخ، وأسماها: (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) وقد عرض تقاليد البيئة الجزائرية، كما تحدث عن التبشير وركز على التصوف. كذلك كتب أحمد بن هطال التلمساني (ت:1219 هـ)[4] رحلة باسم: (رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري) عرض فيها للأحداث التي عاصرها، كما نقل لنا عادات وتقاليد مواطنيه في الغرب الجزائري بوهران، كما تحدث عن سياسة الأتراك آنذاك[5].

وهناك رحالة آخرون في ذلك العصر كتبوا رحلات قيمة بعضها اهتم بالتاريخ وبعضها اهتم بالناحية الأدبية، وهي تتفاوت في أسلوبها، فإذا اهتم الرحالة بتصوير شعوره فيما شاهد، أو حاول استخلاص فكرة معينة فإن رحلته تدخل في مجال الأدب، لأنه ينفعل ويتأثر ويصور لنا هذا من خلال عمله الأدبي، ولكنه حين يصف الأشياء بنوع من التجرد فهنا يصبح مؤرخا لا أديبا لأن حظ الخيال في رحلته يكون قليلا.

و يمتاز أسلوب الرحلات عامة بالتسجيل و الوصف الإنشائي التعبيري و يعتمد على الملاحظة الدقيقة المباشرة أو على الخيال حين يكون الوصف للطبيعة أو الكون أوغيرهما مما ينفعل به الأديب الرحالة فيلونه بشعوره و إحساسه و يعطيه من نفسه الشيء الكثير.

أما عن الرحلات الجزائرية في العصر الحديث فهناك العديد منها ولكننا نتوقف عند البعض منها: بالنسبة للقرن التاسع عشر، أمامنا رحلتان أتجه صاحباهما إلى الخارج ليصفا لنا بيئة أجنبية،وينقلا عاداتها وتقاليدها.

---

[1] – من أدباء الجزائر أواخر العهد التركي، ولد بالجزائر ورحل إلى مكة سنة 1752 . توفي حوالي 1772.

[2] – كان معاصرا لابن عمار، حج إلى مكة وزار تونس ومصر، وله رحلة مخطوطة بالجزائر توفي حوالي1823م.

[3] – ولد ببجاية (بني ورثيلان)سنة1713 ، رحل مرتين إلى المشرق بقصد الحج. له قصائد في مدح الرسول، وأسلوبه يميل إلى السجع.

[4] – هو من علماء الغرب الجزائري، ألف رحلة سنة1787م، أستشهد في معركة بين الأتراك وابن الشريف الدرقاوي سنة 1804. نشرت رحلته أخيرا بعد أن حققها وقدم لها محمد بن عبد الكريم ، الناشر :عالم الكتب،القاهرة،1969 .

[5] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث 1930-1974، ص49.

الرحلة الأولى قام بها محمد السعيد بن علي الشريف[1] إلى فرنسا عام 1852م، لحضور مهرجان تنصيب نابليون الثالث، وقد اهتم في رحلته بأمور وظواهر كثيرة بسبب ثقافته المتنوعة، حيث نشأ في بيئة تعنى بالعلم وحينما قدر له أن يزور بيئة جديدة لم يكن مجرد سائح ،أو مسجل لمشاهد رآها ،وإنما حاول أن يستخلص بعض النتائج ،وأن يقارن بين الجديد الذي يشاهده، وبين القديم في بيئته.وساعده على ذلك ثقافته الفرنسية وولاءه للحكام الفرنسيين–خاصة الماريشال بيجو – وارتباطه بالإدارة الفرنسية التي استدعته ليكون ضمن الوفد المسافر إلى المهرجان المشار إليه.

أما الرحلة الثانية فقد قام بها سليمان بن الصيام[2] حيث زار فرنسا في الوفد نفسه الذي ذهب فيه الرحالة السابق للاحتفال بتنصيب نابليون الثالث، وقد عنى ابن الصيام في رحلته بوصف الطبيعة والآثار والقصور التي شاهدها ،والقطار والباخرة والمسارح والمكتبات[3].

وهو يبدأ رحلته بالبسملة والحمد فيقول: "نحمد الله حمدا، ونشكره على فضله الذي جعل الأرض ذلولا نمشي في مناكبها، وسخر لنا الفلك لتجري في البحر بأمره، ورفقه"

وحين وصل فرنسا بدأ بأول مدينة، مدينة سيد وأخذ يصف المخترعات مستعملا الألفاظ الفرنسية : "...جعلوا هذه الشرائط في الأرض يمينا وشمالا، مربعة مرتفعة مقوسة في أسفلها الذي تحت الأرض وفي الربع الأعلى ساقية تجري فيها رودة الكروسة ولا تخرج عنها ...من أغرب ما يكون مع استواء الطريق ووزنها بموازين الهندسة بحيث لا يعلو موضع على الآخر بشيء". ثم يستمر في وصف المدن والأنهار في فرنسا والباخرة التي تشق البحر..."[4]

هذا عن الرحلات في القرن التاسع عشر.أما عن الرحلات في القرن العشرين فقد اختلفت عما سبقها مضمونا وأسلوبا،لأن الرحلات في هذا القرن غالبا قام بها رجال الحركة الإصلاحية، من علماء وأدباء اتجه بعضهم إلى داخل الوطن لبث الأفكار الإصلاحية، ونشرها بين الجماهير، كما اتجه البض منهم إلى المشرق العربي للدراسة أو لخدمة الشعب الجزائري وقضيته الوطنية.

---

[1] – ولد قرب بجاية سنة 1826 وتوفي حوالي 1896م، وهو من أسرة تنتمي إلى إحدى الطرق الصوفية التي تعاونت مع الاستعمار منذ بداية الاحتلال.

[2] – ينسب إلى بلدة مليانة و هو من عائلة معروفة بولائها للفرنسيين، كان مثقفا ثقافة غربية مكنته من تولي مناصب إدارية وسياسية كبيرة توفي عام 1896م، وتاريخ ميلاده غير معروف.

[3] – ينظر: عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث 1930–1974، ص61.

[4] –المرجع نفسه، ص61.

من ذلك رحلات الشيخ ابن باديس التي سجلها لنا وأبرز فيها زياراته المختلفة لمدن وقرى القطر الجزائري وهو يطلق عليها لفظ نقلات، فيقول: "عرفتني تنقلاتي في بعض القرى ما في قلوب عامة المسلمين الجزائريين من تعظيم للعلم وانقياد لأهله، إذا ذكروهم بحكمة وإخلاص"[1].

ويصرح بأن هدفه من وراء رحلاته كان تذكير الناس بدينهم والرجوع إليه، ودعوتهم إلى "رفع الأمية والجد في أسباب الحياة"[2]. ثم يأخذ في وصف جولاته ويذكر أسماء مدن وقرى ويتحدث عن المساجد فيها، ويدعو إلى بناء مثلها كما يذكر أسماء شخصيات معروفة التقى بها هنا وهناك[3].

وقد كان الشيخ يواجه بأسئلة كثيرة تعبر عن انشغال الناس بأمور تبدو لنا اليوم غير مثيرة للاهتمام يقول: "أكثر ما سئلنا عنه بوجه عام هو التصوف،والولاية والكرامة والتوسل"[4] .

" وهناك رحلات لابن باديس للمشرق أو المغرب لكنها لم تلق العناية الكافية ولو سجلت لأفادت الدارسين للثقافة القومية، وأهمية هذه الرحلات أنها لم تستخدم للتنزه، أو تزجية الفراغ أو خدمة الحاكم الأجنبي، وإنما عنيت بتوعية الناس والدعوة إلى فكرة معينة".[5]

" ولا شك أن الشيخ الإبراهيمي له كذلك رحلات كثيرة داخل الوطن وخارجه، ولعل الكثير منها ما زال مخطوطا"[6].ويبدو مما نشر له أن أسلوبه يمتاز إلى حد كبير بالعناية بالصياغة والبيان والجمال الأدبي. ومن هذه الرحلات رحلة الأديب أحمد رضا حوحو عام 1950م، إلى الاتحاد السوفياتي[7] سجل فيها ما شاهده من تطور حضاري وصناعي وتقدم ثقافي في روسيا. وقد أطلق

---

[1]–عبد الحميد بن باديس: ابن باديس حياته وآثاره، إعداد وتصنيف عمار طالبي، ج4، الشركة الجزائرية لصاحبها الحاج بوداود، الجزائرن ط3، 1997، ص297.

[2] – المصدر نفسه، ص297.

[3] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث 1930–1974، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص68.

[4] – المصدر نفسه، ص319.

[5]– ينظر: عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، ص 69.

[6] – المرجع نفسه، ص نفسها.

[7] – أحمد رضا حوحو أديب جزائري من مواليد 1911 ، بسيدي عقبة بسكرة، استشهد في 1956، يعتبر رائدا في ميدان القصة القصيرة والمسرح. نشرت هذه الرحلة في حلقات في جريدة الشعلة الأسبوعية في: أكتوبر 1950 وما بعده، وكانت الجريدة تصدر بقسنطينة.

على هذه الرحلة عنوان: (وراء الستار الحديدي)[1]، يقول فيها واصفا الثقافة في روسيا:" الثقافة في بلاد السوفييت طابع ممتاز صبغت به كل ألوان الحياة هناك، فلا مفر للكبير والصغير من الثقافة والتعليم ووسائلها كثيرة متوفرة لكل راغب، والإقبال على التعليم عظيم جدا لأنه هو طابع الحياة في تلك البلاد، يجده الإنسان أينما حل ارتحل، في الحدائق، في المسارح، في المكاتب العامة، وحتى في المعامل"[2]

ويمضي بعد ذلك متحدثا بالتفصيل عن نظام التعليم هناك في كافة مراحله، وكيف أن شعارهم: لا طفل خارج المدرسة، ويفرد حديثا طويلا عن كلية الزراعة في روسيا وعن برامج الدولة فيها النظرية والتطبيقية.

أما الرحلة الثانية فكانت إلى المشرق العربي وقد كتبها محمد المنصوري الغسيري[3] حين ذهب عام 1953 مع وفد من الكشافة الإسلامية الجزائرية إلى مصر، ومنها انطلقوا مع الشيخ الإبراهيمي إلى الحج، ثم إلى بعض أقطار المشرق، وقد اختار لها عنوان: (عدت من الشرق)، عبّر فيها عن انطباعاته ومشاعره وأحاسيسه، كما سجل فيها مشاهد وصور ومظاهر البيئة التي زارها عبّر عن ذلك من زاوية المصلح الذي يدعو إلى فكرة معينة، لذا ركز كثيرا على المظاهر الثقافية والأدبية والعلمية والدينية[4].

ويرى الدكتور عبد الله ركيبي أن هناك رحلات أخرى غير ما ذكر، سواء في العهد التركي أو ما بعده لكنها ما زالت مجهولة وحين يكشف عنها ستكون شواهد تفيد المؤرخ والباحث الأدبي وغيرهما، مما يسهم في فهم حركة المجتمع فكريا واجتماعيا وثقافيا[5]

ثانيا: فن الخطابة

الخطابة نوع من أنواع النثر الفني الذي يعتمد على المشافهة، ويهدف إلأى الاستمالة والإقناع والتأثير في نفوس السامعين، وقد اتخذها الأنبياء والمصلحون أداة مهمة في نشر

---

[1] – ينظر: عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص 70.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص71.

[3] – أحد رجال الحركة الإصلاحية من الأوراس، أسهم في الثورة الجزائرية ومثلها في عدة بلدان عربية، كما أنه كان سفيرا في بعض هذه البلدان بعد الاستقلال. توفي سنة 1974.

[4] – ينظر: عبد الله ركيبي: النثر الجزائري، ص 71-72.

[5]– ينظر: المرجع نفسه، ص74.

تعاليمهم، وشد أسماع الناس إليهم. وقد وجد العرب في الخطابة خير وسيلة لإثارة الحماس والحث على القتال، وجلب النفع ودفع الضرر ومقارعة الظلم وحقن الدماء، لهذا اعتنوا بها عناية فائقة، فهي من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم، بها تفاخر العرب قديما وحديثا. واشتهر بها عدد من الخطباء حتى أنه ضرب بهم المثل في الفصاحة والبيان وطلاقة اللسانعلى رأس هؤلاء "قس بن ساعدة الأيادي" الذي كان أول من قال في الخطبة: (أما بعد). وسار الآخرون على منواله وهو أيضا أول من اتكأ على العصاعلى المنبر. ومن الخطباء "أكثم بن صيفي" الذي لا يقل شأنا بفصاحته وبلاغته وطلاقة لسانه.

ولأن الدعوة الإسلامية كانت في بدايتها ، ظهرت الحاجة إلى إنشاء واقع أدبي جديد، فتحول الاهتمام من الشعر إلى النثر. وظلت الخطابة في نفس الدرجة من العناية خلال العصور التي تبعت العصر الإسلامي الأول، فاعتنى الخلفاء الأمويون والعباسيون ومن جاء بعدهو بها.

تعريف الخطابة

هناك جملة من التعريفات لهذا الفن الأدبي الذي حظي باهتمام الفلاسفة وعلماء المنطق والأدباء، فوضعوا له تعريفات كثيرة منها:أن الخطابة (قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة)[1]. وأنها (قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم)[2]. وهي (فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته)[3]. وهي أيضا (فن أدبي هدفه التوجيه والتحويل والاستمالة والإقناع)[4].

وأخيرا هي:(فن من فنون الأدب النثري، مختص بكلام يلقى إلقاء أمام جمهور مستمع، ويعرف بالخطبة، ويهدف إلى توضيح أمر أو قضية هما مثار جدل، لإفهام هذا الجمهور و توجيهه واستمالته بإثارة عواطفه، لاتخاذ موقف ما، هو الموقف الذي يرمي إليه الخطيب)[5].

---

[1]-أرسطو طاليس: الخطابة، تحقيق وتعليق عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت، لبنان، 1979، ص9.

[2]- على بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت،1985، ص104.

[3] - أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ط4، ص15.

[4] - جورج غريب: صدر الإسلام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1983،4، ص57.

[5] - أنطوان القوال: فن الخطابة ، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص11.

فهذه التعاريف الأول يركز على الإقناع دون أن يضع المخاطب في أولويات اهتمامه . والثاني يركز على الجانب المنطقي للخطبة أي أنه يضع الخطيب في أولويات اهتمامه، مع عدم إهمال المتلقي (يركز على الخطيب المتصف بالمنطق، والخطبة القائمة على المقدمات والنتائج وعلى المتلقي الإقناع والاستمالة). والثالث يركز على الأداة المستعملة في الخطبة وهي المشافهة قصد إقناع واستمالة المتلقي. والرابع تعريف أدبي يركز على المتلقي قصد توجيهه واستمالته وإقناعه. والأخير تعريف خاص بهذا اللون الأدبي من الفنون النثرية روعي فيه الخطيب والمتلقي معا. فهذه التعريفات تفرّد كل واحد منها بخاصية أو أكثر إلا أن هناك ما يجمع بينها جميعا خاصة ما تعلق بالمتلقي كالإقناع مثلا.

حين تدهور الأدب العربي في العصور التالية (عصر الانحطاط) حتى عصر الأتراك باتت الخطابة تقليدا أكثر منه إبداعا، ومالت إلى الرتابة فظهر التكلف في أسلوبها، واقتصرت أغراضها على المناسبات الدينية .

الخطابة في الأدب الجزائري الحديث

حين تدهور الأدب العربي بعد العصر العباسي حتى عصر الأتراك، أصبحت الخطابة مجرد تقليد، ومالت إلى الرتابة وظهر التكلف، في أسلوبها وطابعها العام، واقتصرت أغراضها على المناسبات الدينية يكرر فيها الخطيب معاني السابقين، "كان بالإمكان أن تستمر الخطابة في الجزائر على هذا النحو بعد الاحتلال لولا ظهور الأمير عبد القادر وبعض المثقفين الجزائريين الذين ملكوا ناصية اللغة وأدركوا قيمة الخطابة في الدعوة إلى الجهاد واستنفار الذين يحاربون الأعداء، خاصة وأن فترة الاحتلال تساعد هذا اللون من النثر، لكون الصراع بين الجزائريين والاستعمار بلغ ذروته في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، الأمر الذي ساهم في تغيير أسلوب الخطابة ومضمونها أيضا"[1] .

والنماذج التي بقيت لنا من تلك الفترة تدل على أن الخطابة تحررت من أسلوب السجع المتكلف المقصود لذاته، ومالت إلى البساطة في التعبير، والقصد في القول دون إطناب إلا في المناسبات التي تتطلب الكثير من الإقناع، أما في الدعوة إلى الحرب وشحذ الهمم للدفاع عن

[1] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث 1830–1974، ص14.

الوطن ومقدساته فإن المجال يقتضي التركيز والإيجاز، كما يقتضي التعابير الحماسية، ولنتأمل هذا النص للأمير عبد القادر :

" ...أما بعد: فلا يخفى أن الله تعالى قال في كتابه المجيد: يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة. وقال: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله".

فالبداية كما تلاحظ بالقرآن لتحرك همم الجنود وتساعد على التأثير في نفوسهم وتهيئتهم لكي يقتنعوا بالأفكار التي حث فيها على قتال الفرنسيين بعد أن نقضوا العهد.

"وهؤلاء القوم قد عاهدناهم فنكثوا، وصدقناهم فغدروا، وصابرناهم فلم يصبروا، وإن تركناهم وشأنهم، فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة"[1].

من خلال هذين النموذجين نلاحظ تأثر الأمير بأسلوب الإمام علي بن لأبي طالب رضي الله عنه، وطريقته في مراعاة الفواصل والمقابلة بين الكلمات والعناية بتوليد الصيغ والمعاني.

وبعد أن أعدّ الأمير النفوس لما يهدف إليه، وبيّن كيف أن الأعداء لم يحافظوا على العهود، يتجه إلى جنوده يدعوهم لتلبية نداء الجهاد:

"فهيا بنا أيها المسلمون إلى الجهاد، وهلموا إليه باجتهاد وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل، وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل، أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا".[2]

ما يلفت نظرنا هو أن السجع غير متكلف ولا مقصود لذاته، ثم إن الأمير لا يطيل في هذه الخطبة ولا يطنب بحيث لا نحس بالملل ونحن نقرأ خطبه.

وإليك هذا النموذج من خطبة لعم الأمير عبد القادر علي أبو طالب أمام مجلس من العلماء وأعيان الدولة يتحدث عن الحالة التي كانت عليها البلاد وما أحدثه فيها الاستعمار من اضطراب وفساد معتمدا على العاطفة الدينية حتى يقنع الناس، يقول: " ...وقد علمتم- أيها السادة -أنه لما تكاثرت المظالم، وتواطأ العمال، ومن وافقهم على ارتكاب المآثم، انتقم الرب تعالى منهم، وعمّنا ذلك معهم قال تعالى: واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة" الأنفال25. فسلط الله علينا

---

[1]- محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1، دار اليقظة العربية، دمشق، ط2، 1964، ص236.

[2] - المصدر نفسه ص ن.

عدو ديننا، فتكالب على بلادنا، واستولى على مراسينا، واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس، وأخلاها من المدرس والدارس، فخرج لذلك أهل قطرنا، وضاقت بهم أرض مغربنا، واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر، ومضارب الوبر، وتفرقوا أوزاعا في المواطن، وتباينوا في الموارد والمعاطن، وتغيرت الأحوال، واشتبه الممكن بالمحال، و توالى الحل والارتحال، وضعف الرجاء في أن يثوب المسافر، ويعود الشارد النافر، إلى أن طالت القصة، وعز ما ندفع به هذه الغصة، ومالت شمس الاتفاق إلى الأفول، وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول.."[1]

فالقارئ لهذه الخطبة يلاحظ مدى تعبيرها عن واقع الناس وتصويرها لحياتهم، في أسلوب واضح بعيد عن التكلف الزائد مراعيا لطبيعة المرحلة التي تعيشها الأمة.

ومن خلال النماذج السابقة فإن الخصائص التي نلاحظها على خطب الأمير هي:

1-التحرر من السجع المتكلف والميل إلى البساطة، والقصد في القول، واعتماد الكثير من وسائل الإقناع.

2- خاصية الحماسة لأن الخطيب كان في موقف يدعو فيه الناس إلى الجهاد .

3-طغيان النظرة الدينية على الخطباء، لأن الغزاة في نظر الناس كانوا كفارا، احتلوا بلدا عربيا مسلما، يجب محاربتهم،يتجلى ذلك في الآيات والأحاديث النبوية التي كان الخطيب يستشهد بها.

4-وضوح الأسلوب الذي لا تكلف فيه وورود السجع وسائر المحسنات عفويا إلا في النادر حيث يقصد إليه الخطيب قصدا، لإظهار قدرته وبراعته في اللغة وتبحره فيها ومعرفته الواسعة بمفرداتها وأساليبها.

مرحلة ما بعد الأمير عبد القادر

تدهورت الخطابة وضعفت لظروف تتصل بالحياة الأدبية والثقافية والفكرية والسياسية، "فقد هيمن الاستعمار على الواقع وأثر في مجرياته، فكان تأثيره قويا على أداة الخطابة (اللغة) التي ضعفت وكادت تختفي من الحياة الأدبية الثقافية، الأمر الذي أثر في أسلوب الخطابة كما أثر في غيرها من الفنون الأدبية النثرية، وكان أن انحصرت الخطابة في دائرة ضيقة بعيدة عن واقع

[1] – عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، ص13.

المجتمع وظروفه وأوت –مثل اللغة– إلى المساجد والزوايا وباتت تقليدا لعصور الانحطاط بل أشد ضعفا منها سواء من حيث أسلوبها أو موضوعها".[1]

مرحلة ظهور جمعية العلماء

بعد أن انتشرت الأفكار الإصلاحية، واتصلت الجزائر بمن حولها، ونشأت النوادي والجمعيات الثقافية، وانتشرت الصحافة الوطنية، أدى كل ذلك إلى ظهور خطابة متطورة في أسلوبها ومضمونها "إذ كان طبيعيا أن تنشط الخطابة في جو يمتاز بالحركة والصراع والدعوة إلى فكر يستمد أصالته من العصور الذهبية للخطابة العربية، ويعتمد على الفصاحة والبيان العربي المشرق".[2]

فقد ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مرحلة تتطلب خطباء ذوي فصاحة وبيان لنشر أفكارها ومبادئها بين الناس، لأن بث الفكرة الإصلاحية يتطلب قدرة على الإقناع واتصالا مباشرا مع الجماهير في شتى أنحاء الوطن، فكانت الخطابة أداة صالحة لذلك "وعلى الرغم من أن معظم الخطب التي قالها رجال الفكر الإصلاحي لم تسجل ولم يعن بها الدارسون، إلا أن ما بقي منها يدل على أن الخطابة تطورت كثيرا في أسلوبها ومحتواها، وأصبحت فنا يعتمد الموهبة والثقافة والارتجال في كثير من الأحيان، كما يدل أيضا على عناية المصلحين بهذا الفن الذي ساعدهم على نشر دعوتهم بين الجماهير التي كانت أمية في الأغلب"[3]

ومن أشهر خطباء الإصلاح الذين اشتهروا بالفصاحة وقوة البيان ،الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889–1940). الذي توفرت فيه شروط الخطيب المقنع من: سعة ثقافة، وإلمام بقضايا الوطن، وقدرة على الارتجال والإقناع، ومعرفة كبيرة بالجوانب الفنية للخطابة، وإيمان بما يدعو إليه. وقد اكتسب الإمام كل هذا من أسلوبه في التربية والتكوين الذي استفاده من شيخه حمدان الونيسي. ومن خطبه هذا النموذج الذي ألقاه سنة1937 :

"الحمد لله الذي فضلنا بالعقل، وكملنا بالعلم، وجملنا بالفضيلة، وأسعدنا بالهداية والتوفيق. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الكامل بالفطرة المكمل بالعصمة، المبعوث إلى الخلق رحمة،

---

[1] – المرجع السابق، ص24–25.

[2] – المرجع نفسه، ص26.

[3] – المرجع نفسه، ص26.

الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة إلى أقوم طريق، وعلى آله المنبثقين من أكرم نبعه، والمتحدرين من أطهر مزنه، والنابتين من أطيب تربه،...وعلى أصحابه الذين نشروا الملة، فبينوها بأسلحة الألسنة، وحموها بأسل الأسنة، حتى تبحبح الناس من الإسلام والسلام في روض أنيق وعلى التابعين لهم من جميع الأمة المقتفين آثارهم بحق وقوة، المجددين عهدهم بعلم وحكمة،...

أما بعد فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام، وأنصار العلم والفضيلة، حوربت فيكم العربية حتى ظُن أنه قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها، فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل ،ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلا والمفاصل.

وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أنه طمست أمامكم معالمه، وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد...وحورب فيكم العلم حتى ظن أن رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة ..

نعم- أيها الإخوان- نهضنا بعد أن صهرتنا بنار الفتنة والابتلاء حوادث الزمان، وقارعتنا وقارعناها الخطوب، ودافعتنا ودافعناها الأيام "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين" البقرة251.

نعم نهضنا بعد قرن، بعد ما متنا وأقبرنا، أحيينا وبعثنا سنة كونية فقدناها من القرآن، ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان...[1] وهي خطبة طويلة متعددة الموضوعات. وابن باديس لا يركز في خطبه على موضوع واحد، بل نجده حينا يركز على الدين، وحينا على الإصلاح والاجتماع، وأحيانا أخرى على السياسة والإصلاح معا، وعلى التربية والأخلاق في أوقات كثيرة. ومن سماته أنه لا يتكلف في خطبه، ولا يتظاهر بالفصاحة، ولا يستخدم الخطابة لإظهار قدرته على القول، إنما يستخدمها ليؤكد أغراضه وأهدافه الإصلاحية، والوطنية، لذلك ينتهز الفرصة لشرح وتوضيح هذه الأفكار، وهو حين يرتجل يختصر، وحين يكتب يطيل ويفصل.

ومن أبرز أعلام الخطابة الذين لا يقلون شأنا عن ابن باديس في زمانه: البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، السعيد الزاهري، العربي التبسي، أحمد توفيق المدني، الفضيل الورثلاني أبو اليقظان وغيرهم.

---

[1]- عبد الحميد بن باديس، الآثار ، ج4 ، ص202-205.

وإلى جانب الاتجاه الإصلاحي في الخطابة هناك اتجاه آخر يركز على الناحية السياسية الوطنية ويهاجم الاستعمار بجرأة وصراحة، يمثله خطباء حزب الشعب "الذين ذهبت آثارهم، ذلك أن طريقهم في مهاجمة السلطات الاستعمارية جعلت من الصعب نشر خطبهم أو تسجيلها، كما أن صحفهم كانت تصادر باستمرار"[1]

موضوعات الخطابة في النثر الجزائري الحديث

أولا: موضوعات سياسية: نقصد بها ما تعلق بالاستعمار، ومصادرته حقوق الجزائريين وتضييقه على اللغة ومحاربته للإسلام ومحاولة تشويه صورته، مع العلم أن جمعية العلماء لم تكن تعرض للقضايا السياسية مباشرة وإنما كنت تعالج قضايا اجتماعية أو ثقافية ومن خلالها تبث أفكارها السياسية.

ثانيا: موضوعات اجتماعية: لإصلاح ما أفسده الاستعمار، وإعادة بناء الفرد بناء متكاملا ولعلنا نلاحظ ذلك في ما تناولته الخطب من ظواهر اجتماعية، كالجهل والأمية والانحراف الخلقي، الدعوة إلى الاتحاد ونبذ الفرقة والاختلاف، وقضية التعليم...

ثالثا: موضوعات دينية: تتمثل فيما كان يلقى من خطب في المناسبات الدينية وغير الدينية، يتناول الخطباء من خلالها كل ما تعلق بالإسلام وما يدعو إليه.

خصائصها :

1- الالتزام والواقعية: وهو الوقوف إلى جانب القضايا الوطنية سياسية كانت أو اجتماعية أو ثقافية والتعبير الصادق عن مشاعر الشعب في جميع أحواله.

اللغة والأسلوب:

أ- اللغة: وتمتاز ب:- السهولة والمباشرة والطابع التقريري والسمو باللغة إلى مستوى رفيع واقتباس هذه اللغة واستلهام معانيها من الدين الإسلامي.

ب- الأسلوب: ويمتاز بالوضوح والموسيقى الناتجة عن المحسنات البديعية المختلفة.

---

[1] - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص27.